

ذاكرة السمك
سليمان العليمات

رواية

إهداء

إلى كل من علمني حرفا

حقوق الملكية (2021).

جميع الحقوق محفوظة, لا يجوز نشر أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب, أو اختزان مادته بطريقة الإسترجاع, أو نقله عن أي طريق, سواء كانت الكترونية, أم ميكانيكية, أم بالتصوير, أم بالتسجيل, أم بخلاف ذلك دون الحصول على إذن المؤلف الخطي, وبخلاف ذلك يتعرض الفاعل للملاحقة القانونية بمقتضى قانون رقم (22) لسنة 1992 (قانون حماية حق المؤلف), والقانون المعدل رقم (8) لسنة 2005 (قانون معدل لقانون حماية حق المؤلف).

تنويه

جميع أحداث الرواية والأسماء الواردة فيها غير حقيقية, وهي من وحي الخيال, وإن صدف تحاكي شخصية حقيقية فهي صدفة موقّعة.

الفصل الأول

سمرا يا سمرا

كان آخر يوم من أيام امتحانات الثانوية العامة , التوجيهي, حيث قدمت مادة التربية الوطنية. لم يسألني أي شخص كيف قدمت امتحان اليوم. الجميع كان فرحا مثلي بأني أنهيت الامتحانات . عدت إلى المنزل عند العصر. ومع إقترابي منه اقتربت سيارة 4 x4 تحمل لوحة حمراء, وكما فهمت فيما بعد بأنها سيارة حكومية. ترجل منها شخص مربع القامة , بدين إلى حد ما, يضع نظارة سميقة على عينيه. دس يده إلى جيبه وسحب منها منديلا ابيض اللون, ومسح العرق المتصبب من صلعته وعلى رقبتة. سألني إن كان هذا هو بيت الشيخ مناور, فأجبتة بنعم. وقلت له تفضل بالدخول.

- أريد أن أجلس هنا على البرنذة في الظل. الجو حار وهنا ابرد من الداخل , إذا ما في مانع طبعاً.

أجبتة بأنه لا يوجد أي مانع. فقد قامت أختي الصغيرة بتنظيفها. وهذا روتين يومي في مثل هذه الفترة من النهار, لإضفاء جوا من الرطوبة. وتقوم بسقي نبات الريحان المزروع في علب السمنة الفارغة.

دخلت إلى الداخل وأخبرت أبي أن هناك ضيفا ينتظره في الخارج. قال إنه سمع صوت السيارة وانه كان يصلي صلاة العصر. أخرجت فرشاة الصوف إلى البرنذة ومددتها على شكل مستطيل ناقص الضلع السفلي وذلك لإفساح المجال للضيف للدخول والجلوس على الفراش.

جاء ابي وهو يرتدي عباءته السوداء, والمزينة بإطار من الخيوط الذهبية على أطرافها, وبدأ ترحيبه المعتاد بالضيف:

- يا أهلا ويا سهلاً...يا حي الله بالضيف...والله زارتنا البركة...والله ساعة مباركة التي أتت بك إلى قريتنا.

استدار ناحيتي وقال:

- يا ولد صب القهوة للضيف.

أمسكت بدلة القهوة في يدي اليسرى وفي يدي اليمنى الفنجان. سكبت القهوة في الفنجان. حنيت ظهري قليلا وقدمت الفنجان للضيف. مسك الفنجان وبدأ يديره بين أصابعه.

- والله رائحة قهوتكم طيبة يا شيخ.

ارتشف أول رشفة ثم تبعها بالثانية والثالثة. هز الفنجان, وهي إشارة إلى كفايته من شرب القهوة. تناولته منه وما زلت واقفا و قريبا من والدي.
قال له والدي:

- اشرب كمان قهوة يا ضيف. دائما نقول بأن الفنجان الأول للضيف والثاني للضيف والثالث للكيف. حياك الله.

- والله يا شيخ منذ الصبح وأنا اشرب القهوة والشاي. ضغط العمل صعب جدا, من كثرة الأشغال ما أنا فاضي احك رأسي. وبعدي على لحم بطني.

فهم أبي ماذا يقصد الضيف؟ استدار نحوي وقال:

- إن شاء الله كان أداؤك جيدا في امتحان اليوم. ثم التفت إلى الضيف وقال:

- هذا إبني ممدوح . أنا مبسوط جدا لأن هذا اليوم آخر يوم له في امتحانات الثانوية العامة.

استدار نحوي وهو يمسح العرق عن جبينه وسألني:

- وماذا تريد أن تدرس يا ممدوح؟

- أريد أن التحق بالكلية العسكرية وأن أصبح ضابطا في الجيش.

التفت والدي نحوي وقال بلهجة الأمر:

- الحق الراعي واحضر ذبيحة للضيف. وبسرعة بدون تأخير.

انطلقت ساقاي تسابقان الريح, شعرت بتعب شديد وأنا أركض توقفت عدة مرات حتى وصلت إلى الراعي أخيرا وأنا ألهث ولساني خارج فمي. إذ كنت كلما

ركضت مسافة أو مشيت مشوارا طويلا أشعر بتعب شديد, دائما هكذا الهث
ولساني خارج فمي.

كان منظر الخراف رائعا وهي تقضم ما سقط على الأرض بعد حصد زرع القمح
وتغميره إلى البيدر. انتقيت أفضل الخراف, وطلبت من سائق التراكتور, أبو علي,
أن يوصلني إلى الدار. وصلت حيث وجدت عمي أبو سلافة حاضرا, وبدأ يشحذ
سكاكينه استعدادا لذبح الخروف.

بدأ توافد وجهاء القرية إلى منزلنا. كان أول من وصل مختار القرية ,
مرعد العلي, ثم الحاج عبيدان المرعي والحاج سعيدان المانع. هذا الأمر طبيعي جدا
أن يأتوا وخصوصا عندما يرون سيارة حكومية أو غريبة عن القرية.

بدأت أمي بإشعال النار. وكالعادة قمت باختطاف المعلاق والكبد للشواء على
النار. الجميع يتخاطف لقمة منها وهي على النار, وعمي أبو سلافة يرمي لنا ما
تيسر من الشواء, ودائما يقول "الحامي يحمي حاله".

عدت إلى مجلس والدي وقمت بصب القهوة لجميع الضيوف.

بدأ الضيف حديثه بالسؤال عن أحوال الناس. قال المختار:

- الحمد لله, مستورة.

قال الضيف بأنه مدير قسم الصرف الصحي في وزارة المياه والري, وعرف بنفسه
بأنه المهندس تميم السديري. انفرجت أسارير والدي قليلا, واستدار نحوه
قائلا:

- أهلا وسهلا بالمهندس تميم. لقد قدمت طلبا, منذ أكثر من عام, من أجل
حفر بئر ماء في أرضي. أكيد وافقتم عليه وأحببت أن تحضر. رخصة الموافقة
بنفسك.

رد المهندس تميم على والدي:

- لا يا شيخ. أنا ليس لي علاقة بشؤون ترخيص الآبار. أنا قادم من أجل أمر آخر.

نظرت إلى وجه والدي وإذا بأسارير وجهه تنقبض وعلامات السرور بدأت تتراجع وتتلاشى. إن شاء الله خير, ما الأمر الذي أتيت من أجله؟ خير اللهم اجعله خيرا, عبارة خرجت من حلق والدي. التفت نحوي وقال:

- صب قهوة يا ولد.

قال المهندس:

- لقد أتيت من عمان مباشرة إلى قريبتكم. لقد درست مخطط الأراضي لهذه المنطقة ووجدت أنك تملك أكثر من ثلاثمائة دونم. اللهم لا حسد.

التفت أبي إلى الحاضرين وقال:

- هذه الأراضي كلها ورثناها عن أهلنا، وإن شاء العلي القدير سوف نورثها إلى ابنائنا. بعضها نزرعه قمحا وبعضها شعيرا وبعضها سليخ. إننا نزرع ما يكفي أن نعيش عيشة مستورة, أكثر من هذا لا نريد, السترة وبس.

- والله يا شيخ إن لديّ رغبة شديدة لرؤيتها واقف عليها.

- ولكن يا مهندس الأرض ما هي للبيع. والأراضي هنا لا تسوى شيئا مقارنة مع أسعارها عندكم في عمان.

- أنا لا أرغب أن اشترى أراضي. الحكومة تفكر في إنشاء مشروع كبير في منطقتكم. ومن قراءتي لمخططات الأراضي وجدت أن جزءاً كبيراً من أرضك وقع الاختيار عليه.

قال الحاج عبيدان المرعي:

- أنا لي أرض محاذية لأرض الشيخ ليست كبيرة مثل أرضه.

وأضاف الحاج سعيدان المانع:

- وأنا عندي حوالي عشرين دونما محاذية لأرض الشيخ.

وشارك المختار مرعد العلي في الحوار قائلاً:

- أنا ما عندي شيء. كل ما املكه هو الدونم الذي حول داري. ما في غيره. عبارة قالها وهو يمسك على نابه بالإبهام والسبابة كمن يخرج من فمه, دلالة على

فقره وبؤس حاله. غالبية سكان القرية لا يعرفون اسم المخترار الحقيقي.
الجميع يعرفونه بلقب " زقلل " .

قال أبي:

- يا مهندس حتى الآن ما قلت لنا ما هو هذا المشروع الضخم؟
أجاب المهندس:

- دعونا يا جماعة نذهب إلى الأرض وهناك أخبركم عن المشروع.
قال والدي:

- على بركة الله, لنذهب ومع عودتنا تكون المناسف جاهزة.
سار الجميع حتى وصلوا ربوة تكسوها حجارة سوداء بركانية, متناثرة بشكل
عشوائي على امتداد الأرض. وقف الجميع وقال المهندس:
- هذه الأرض هي أفضل بقعة في المملكة لإنشاء المشروع. لقد درسته على
المخطط والآن أقف على أرض الواقع. إنها القطعة المثالية, كما تخيلتها في
أحلامي وكما أفرزتها بنات أفكارى. التفت إليه والدي وقال له, وهو يشد العباءة
الى كتفه:

- والله شوقتنا كثير يا مهندس لمعرفة هذا المشروع.
وقال المختار:

- لا بد أنه مشروع عظيم حتى نتحدث عنه بهذه الطريقة.
أجاب المهندس وهو يمسح رأسه الخالي من الشعر:
- نعم انه مشروع عظيم. وأقول لكم سرا, لا تنقلوه عن لساني, انه أعظم
مشروع في تاريخ المملكة.

قال الحاج عبيدالله:

- يبدو أن لنا عندك مكانة خاصة حتى اخترت منطقتنا لإقامة هذا المشروع
العظيم, على حد قولك.

- قال المهندس وهوفرك يديه فرحا نعم... نعم.... إنه مشروع عظيم يا جماعة, إن لكم عندي منزلة خاصة كانت وراء اختياري أرضكم لهذا المشروع. والآن إحك لنا عن هذا المشروع يا مهندس, قالها والدي وهو يهرش لحيته البيضاء, وبلهجة فيها شيء من الرجاء للافصاح عن هذا المشروع العظيم. قال المهندس سأخبركم عنه. في هذه المنطقة تحديدا ستقام أكبر محطة لتنقية المياه العادمة في المملكة. لا بل في منطقة الشرق الأوسط كلها. صمت الجميع للحظة. قال الحاج عبيدان المرعي ماذا تعني محطة تنقية للمياه العادمة؟

أجاب المهندس:

- كما تعرفون يا جماعة, إننا عندما نذهب إلى الحمام , أجلكم الله, تذهب الفضلات إلى الحفرة الامتصاصية. وتتسرب إلى الأرض وتذهب سدى في التربة ولا فائدة منها إطلاقا. المشروع يقوم بكل بساطة على تجميع هذه الفضلات هنا في هذه المنطقة بالتحديد . سنبنى محطة لتنقية المياه العادمة وإعادة تدويرها واستعمالها في الزراعة وفي الري.

قال والدي:

- لا بد أنك تمزح يا مهندس تميم. في القرية الكل عنده حفرة الامتصاصية الخاصة به على حد قولك. وفي الصيف "نعزب" مع الغنم ونبنى بيوت الشعر والأرض كلها خلاء. لا توجد عندنا مشكلة صرف صحي أو أي شيء من هذا القبيل. ما هي حاجتنا للمحطة التي تقول عنها!!؟

- يا إخوان , يا جماعة, أنا لا أتكلم عن تصريف فضلاتكم أنتم. منطقتكم أصلا غير مشمولة بالمشروع على الإطلاق, لا توجد عندكم مشاكل صرف صحي أبدا. ضحك المختار ضحكة عالية حتى بدأ تجويف فمه الداخلي خال من الأضراس, وقال:

- إذا لمن تبني هذه المحطة؟!!

قال المهندس:

- لسكان العاصمة وربما لسكان مدينة الزرقاء وربما مدن أخرى سوف يشملها المخطط لاحقاً.

قال الحاج عبيدالله بتهكم:

- يا لطيف.... لسكان العاصمة والزرقاء!!! لماذا لا يأتوا ويعملوها عندنا هنا؟ ربما أوفر لكم ولهم.

قال المهندس:

- أنا لا أمزح يا جماعة, هذا هو المشروع العظيم الذي جئت من أجله ولأخبركم بأنه أكبر مشروع تتبناه الحكومة منذ تأسيس المملكة.

قال أي:

- وماذا نستفيد نحن من هذا المشروع العظيم؟

أجاب المهندس:

- هذا سؤال جيد, لا بل ممتاز يا شيخ مناور, إن دل على شيء فإنما يدل على الذكاء الذي تتمتع به.

وضع المهندس يده في جيبه وأخرج منديله ليجفف به عرقه المتصعب على رأسه ورقبته. الدنيا كثير حامية. مثل ما ترون يا جماعة, المنطقة كلها مغطاة بالحجارة السوداء البركانية. هذه تمتص حرارة الشمس في النهار وتعكسه في الليل. لهذا دائماً الطقس حار. الله يكون بعونكم. مسك يد والدي بيده وأشار بسبابته قائلاً:

- هل ترى هذه المناطق التي أمام نظرك يا شيخ مناور؟

- نعم أراها. لقد ولدت هنا وأنا أعرفها بالشبر وقدماي داست على كل حجر فيها. ولا تنس بأن الأرض التي نقف عليها هي ملكي, والملك لله. أعرف انها جرداء وان حجارتها سوداء. أنا معك انها حامية, ولكن لا أدري إن كانت تخزن أو تمتص أو تشع حرارة الشمس ليلاً أو نهاراً, سيان. وأريد أن أقول لك سرا أيضاً,

ولا تخبر به جماعتك في العاصمة. أي شخص عنده الآم في المفاصل أو دسك أو الآم في الظهر, ما على المريض إلا أن يستلقي على هذه الحجارة, أو يدفن نفسه في ترابها, ولا يمكن أن يعاوده الألم مرة أخرى, وأنا مجرب ذلك بنفسي.

- أعرف بأن الأرض لك يا شيخ. ولكن لا أعلم بأنها تشفي من الأوجاع والأمراض التي ذكرتها. ولكن أنا نفسي- لا أرى أماي الآن سوى مساحات شاسعة كلها خضراء مزروعة بما تجود به الأرض, لا أرى أرضا جرداء ابدأ. وهذا بفضل المياه التي ستخرج من المحطة في نهاية عملية التدوير. وعلى سبيل ذكر للأمراض سوف ننشئ. بركا بمساحات واسعة لتربية التماسيح. أثبت العلماء الاستراليون بأن دماء التماسيح تفيد في معالجة الأورام السرطانية. سوف نعمل على تكاثر التماسيح ونبيع دماءها لمعالجة مرضى السرطان.

قلت في نفسي وماذا عن دموع التماسيح التي يذرفها هذا المهندس المتحذلق؟! قال المختار:

- وماذا ترى غير المساحات الخضراء وبرك التماسيح يا مهندس؟
- سوف نزرع أشجار الصفصاف في هذه المناطق. هل ترى محطة القطار يا مختار من هنا؟

- نعم...أراها...تلك هي المحطة ذات الطابقين والمبنية من الحجارة السوداء منذ زمن الأتراك, والتي بفضل ضعف مشاريع الحكومة وغيابها أصبحت أثرا بعد عين, وأخشى أن تذهب قريتنا السمرا بعد حين, مثلها مثل محطة القطار.

- بعد عدة سنوات يا مختار لن تراها من هنا. ستحجب أشجار الحور الباسقة والصفصاف الرؤية. سيقام في هذه المنطقة أكبر مصنع لصناعة أعواد الثقاب, معتمدة على وجود هذه الأشجار, إني أرى المصنع أماي يعمل كما اراك واقفا أماي يا مختار. ليس من المعقول أن نستورد علب الثقاب من الخارج, هذا لا يجوز, يجب أن نبنى مصنعا هنا فيما بعد لهذه الغاية.

قال الحاج عبيد الله :

- أرضي تقع على ذلك الطرف المطل على الجرف. عند ذلك الحرذون الذي يقفز.
إنها ليست كبيرة مثل أرض الشيخ مناور ولكنها محاذاة لأرضه.

التفت المهندس إليه وقال:

- أنا لا أرى أي حرذون, ما أراه إلا بحيرة هناك, والتماسيح تسبح فيها. سوف
يأتيك السياح من كل حدب وصوب لزيارة هذه البحيرة, عدا عن المتنزهين من
داخل المملكة.

التفت أبي إلى المهندس وقال:

- آه يا مهندس, كل هذه الأمور تراها. ونحن عميان عنها؟ ترى أشجار صفصاف
وأشجار حور ومصنع عيدان ثقاب وبحيرة تماسيح! إتق الله يا رجل. ماذا ترانا
أمامك؟ هل تظن, نظرا لكونك مهندسا, أنك تفهم أكثر من الآخرين؟ كل واحد
من سكان القرية أفهم منك بكثير. هل ترى ذلك العصفور الطائر في الجو؟ إن
ابني ممدوح يستطيع أن يخبرك عن نوعه وجنسه وهل هو ذكر أم أنثى؟ هل
تستطيع أنت ذلك؟

- نسيت أن أقول لك يا شيخ بأنه مع وجود الأشجار والمياه سوف تعود الطيور
المهاجرة إلى هذه المنطقة وبالذات طائر النورس, هذا الطائر المسكين الذي
هاجر من موطنه الأصلي في هذه الأرض.

قال الحاج سعيدان:

- يا مهندس هذه البلاد ما هي بلاد طائر النورس.

بدأ الامتعاض على وجه المهندس, وعلامات عدم الرضا على محياه, وقال وهو
يبلع ريقه:

- ما علينا يا جماعة صدقوني بأنه مشروع عظيم, وسوف تستفيدون منه فوائد
عظيمة. جميع القرى القريبة سوف تحسركم على هذا المشروع.

أجابه والدي:

- أنت قادم من عمان لتخبرنا عن مشروعك الذي كله لون وطعم ورائحة. ويا حبذا لو كان هناك تصريف لفضلات القرية. كل مشاريع الحكومة فاشلة. لم نر منها غير تعب البال وفقير الحال. كنا زمان نزرع قمح حوران الذي هو أجود أنواع سلالات القمح. واتوا لنا بقمح هجين, لا نعلم من أين أصله. نسميه قمح الحكومة. لا يوجد به خير أبدا. هل ترى محطة القطار التي هناك؟ إنها الآن خرابة وقبل سنوات كانت تعج بالمسافرين هذا بفضل اهتمام الحكومة بنا. ومشروعك هذا العظيم لماذا لا تأخذه إلى الصحراء. ثلثا مساحة المملكة صحراء. هل ضاقت الدنيا عليكم حتى اخترتم هذه المنطقة؟!

- أفهم من كلامك يا شيخ بأنك ترفض المشروع.

- أرضي ليست للبيع وأنا رافض له.

- يا شيخ اخترنا المنطقة هذه لأن المياه العادمة القادمة من عمان سوف تجري بشكل انسيابي مع سيل الزرقاء. طبعا ستكون ضمن مواسير اسمنتية. وأود أن اقول لك يا شيخ بأنه تم استملاك جميع هذه الأراضي والبالغة اربعمائة و خمسين دونما. الحكومة لا تأكل حق أحد. سنقوم بتعويضكم. نحن لا نشترى أراض بل نستملكها للمنفعة العامة. وهذا المشروع منفعة عامة لكل الوطن.

دس المهندس يده في جيب سترته الداخلية وأخرج منها مظروفا بني اللون. تفضل يا شيخ هذا هو قرار مجلس الوزراء الموقر باستملاك الأرض.

وقف أبي واجما, لم يقل أية كلمة ولم تتحرك شفتاه أبدا. إحتبست الدموع في محاجر عينيه . أدركت مدى صعوبة أن يبكي الرجل وأن تحتبس الدموع في المآقي. تناولت المظروف من يد المهندس. أشاح بوجهه, الذي يشبه وجهه

الضفدع, عن الجميع, خطا نحو سيارته وقال:

- أعذروني يا جماعة أنا معي سكري ولا أستطيع أن آكل مناسفكم.

انفجرت شفتا أبي وقال:

- لا أستطيع أن أتخيل كيف أمه تحملت حملة تسعة أشهر!

وقال المختار بتهكم:

- ربما يا شيخ يكون ابن سبعة.

أجابه والدي بكل هدوء " دشرك منه, قوله مثل بوله".

عدنا إلى المنزل ووالدي صامت طوال الطريق ولم ينطق بأية كلمة. وجدنا عمي أبو سلافة قد اعد المنسف إعداداً رائعاً, ورأس الخروف يتوسط تلة الأرز, مبرزاً لسانه من فمه باتجاه اليمين. بدأنا نأكل . ورفض والدي أن يمد يده إلى الطعام معللاً ذلك بأن ليس عنده أية شهية للأكل.

بدأ الحديث بقراءتي لكتاب الاستملاك الذي استلمته من المهندس تميم. هناك قرار فعلاً من مجلس الوزراء حول استملاك الأراضي وإقامة المشروع.

لم يتكلم والدي وكان طوال الجلسة يسأل خيوط إطار عباة الذهبية خيطاً خيطاً, وكانت هذه عادته عندما يكون غير راض عن أمر ما. ومن عادته أيضاً أن يستدير إلى الشق الآخر, حتى تصبح العباة غير لائقة ولا يرتديها مرة أخرى. عنده الكثير من العباات. وأفضل هدية محببة إلى قلبه هي عباة هذه المزيينة بالخيوط الذهبية.

أشار الحاج مرعي والحاج سعيدان بأنه يجب رفع دعوى في المحكمة ضد قرار مجلس الوزراء. وبالتأكيد إنها بحاجة إلى محام ماهر لكسب القضية . قال المختار إنه لا جدوى من رفع دعوى ضد القرار. الحكومة أقوى منا و ما لنا قدرة عليها وحبال المحاكم طويلة, أطول وأبرد من ليالي الكوانين.

- كلامك " عصملي " يا مختار. عبارة قالها والدي وهو يتشاءب ويده على فمه.

الفصل الثاني

فلات فووت

مع بزوغ الشمس ووصول أول شعاع إلى أرض القرية كنت أول راكب في سيارة "اللاندروفر" المتجهة إلى الزرقاء. اليوم هو موعد الفحص الطبي الذي سيتم في مستشفى "التضميد" لجميع المرشحين لدخول الكلية العسكرية. هناك جمع غفير من الشباب, في مثل عمري, الذين أنهوا الثانوية العامة. جميعهم جاءوا للفحص الطبي مثلي, كل واحد يجري وراء حلمه. الجميع ينتظر دوره.

جلسنا جميعا في قاعة الانتظار. رأيت أعضاء اللجنة المكونة من ثلاثة أطباء, ينزلون الدرج باتجاه قاعة الفحص الطبي, يتهامسون فيما بينهم ويضحكون. أوجست خيفة منهم, كل منهم يرتدي المريول الابيض و تتدلى حول أعناقهم السماعات الطبية, سوداء اللون تنتهي بقطعة معدنية دائرية بيضاء اللون مسطحة الشكل. تراءى لي أنها افاع سوداء ذات أنياب بيضاء تنتظر أوامرهم ليطلقوها باتجاهي لالتهامي. هذه ستكون نهاية أحلامي. قطع خيالي صوت الحاجب ينادي على اسمي, سرت إلى القاعة وأنا أشعر بالخوف, شعرت بان مستوى الادرينالين في ارتفاع, هكذا قال معلم العلوم بأن مستوى الادرينالين يرتفع نتيجة للخوف. جلست وأنا أنظر إليهم, ثلاثتهم يتهامسون فيما بينهم, قال الطبيب الجالس في الوسط, رافعا نظاراته الطبية إلى أعلى جبينه المقطب وبلهجة الأمر:

- اخلع حذاءك.

خلعت حذائي الجديد, الذي اشتريته حديثا لهذه المناسبة, بكل هدوء.

ثم أضاف الطبيب الجالس في اليمين:

- انزع الجرابات.

نزع الجرابات السوداء اللون, ووضعتها داخل الحذاء.

وقال الطبيب الجالس على اليسار:

- إمش في القاعة.

مشيت كما أمرني داخل القاعة.

- دعني أرى باطن قدميك.

رفعت قدمي إلى الأعلى ليراها بكل جلاء ووضوح.

- قال الطبيب الجالس في الوسط , ملتفتا نحو الآخرين. اعتقد بأنه لا

يصلح للجنديّة. كما ترون. لديه "فلات فووت".

نعم نرى ذلك بوضوح تام وجلي.

ماذا يعني " فلات فووت"؟!

- يعني عندك تبسط في باطن قدميك, ولا تستطيع أن تكون مجنّدا, إنها

القاعدة الأولى في التجنيد. يجب على المجنّد أن لا يكون عنده تبسط في

القدمين.

لم أتكلّم أية كلمة, انعقد لساني تماما. كان عندي إحساس بأنّي لو تكلمت

سيطلقون أفاعيهم نحوي لتلتهمني خلال ثوان معدودة. تمنيت لو أن ألقى

بقلمي على الأرض ويصبح أفعى تلتهم أفاعيهم, بل تلتهمهم جميعا. تحسست

قلمي, وجدت بأن الحبر قد فاض من القربة ليكون بقعة زرقاء اللون على

قميصي.. ربما من شدة حرارة جسمي نتيجة للضربة القاضية التي تلقيتها للتو.

لقد قضوا على أحلامي بالكامل. كنت احلم أن أكون جنرالاً في الجيش. والآن لا

شيء..... لا شيء. خرجت من القاعة وأنا أكلّم نفسي.. كنت أرى نفسي. وأنا أعود

إلى القرية في الاجازات مرتديا البزة العسكرية. اذهب إلى الأعراس وأنا أرتديها

لأسمعهن يغنين:

" وممدوح

أجى

لابس

البدلة العسكرية

واللي

ما تزغرد له

لسانها للحية "

فتبدأ ألسنة الصبايا بالزغاريد خوفا من الحية أن تلتهمها. وبالذات ابنة عمي
سلافة. حتى هذه الفرحة استكثروها عليك يا ممدوح!

هكذا إذن لن أكون جنرالاً؟! كان معلم التاريخ دوما يسألنا، ما هي آخر معركة
انتصر فيها جيش العرب المسلمين؟ كل طالب كان يقف الواحد تلو الآخر يدلي
بدلوه. جيل لم يعرف أي انتصار في هذا الزمن الرديء، نكبة...
نكسة... انهزام... اندحار. كل من كان يقول اسم معركة يقول المعلم " إجابة
خاطئة".

جميعنا عجزنا عن الإجابة. قال المعلم :

- إنها معركة حطين.

يا للهول! يا للكارثة!! يا للمصيبة!!! ولفظاعة الاجابة.

هل من المعقول بأنه منذ معركة حطين لم نحظ بأي انتصار؟ اليس هناك من
نصر يتيم! هناك الجيوش المجيشة من العرب! أين جنودنا؟ أين جنرالاتنا؟

في أحد البرامج الشهيرة على إحدى القنوات الفضائية سمعت المذيع يقول
أكثر من مرة وفي أكثر من مداخلة بأن جنرالاتنا يبيعون "الكلاسين" على
الإشارات الضوئية في أمريكا. قاطعه جنرال مشارك في البرنامج، من داخل
الاستديو:

- لا... لا... لا... أرجوك يا عزيزي، إنهم يبيعون الورود.

ورد اتصال هاتفي من جنرال آخر متقاعد:

- إنهم يبيعون "الكلاسين" والورود معا.

أمر محزن ومخزي. كانت فرائص المواطنين ترتعد بمجرد سماع أسمائهم . ماذا حصل؟ كانت التهتافات تتوالى " بالروح بالدم نفديك يا وطن ". عندما احتاجهم الوطن كل واحد خلع بزته العسكرية وألقى بها بعيدا عائدا إلى زوجته بلباسه الداخلي مزيينا بماركة "كوكا كولا". وأطلقوا على هذه العملية " ليل الأحرار". متى كان للأحرار ليل؟! الليل للغواني والقوادين وتجار الأوطان والفاستدين. الأحرار لهم فجر ينتظرهم.

لقد استلموا راية بيع "الكلاسين" من جنرالات "سايفون" بعد اندحار أمريكا في فيتنام. رحلت جنرالات سايفون مع الامريكان ولم يجدوا هناك في ارض الأحلام الا بيع "الكلاسين" على النواصي والإشارات الضوئية. والمحظوظون أكثر أصبحوا حراسا شخصيين للغواني وأعشاش الليل. والآن استلم جنرالاتنا الجدد عصا التتابع بعد أن شاخت جنرالات سايفون في بلدة " سايفون الجديدة" وبعد أن غير أحرار سايفون اسم المدينة إلى "مدينة هوشي منه" لمحو العار.

جنرالاتنا قالوا إنه لا فرصة لدخول الجيش الأمريكي لتحرير الكويت بعد احتلالها من قبل الجيش العراقي. هناك الخنادق العريضة والطويلة والعميقة والكثبان الرملية العالية التي تمنع دخولهم. عندما تستمع إليهم يتراءى لك بأننا نعيش أجواء معركة الخندق. شحدة , ابن خالتي مشاتي, أسري , بعيد الرحيل, بأن الحرب القادمة ستكون حرباً " الكترو كهرو مغاطيسية" حاول جاهدا أن يشرح لي هذه الحرب القادمة ولكني لم استطع استيعابها. كان مؤلما جدا أن نرى جثث الجنود متفحمة فوق آلياتهم. لا أحد يعرف أين اختفت الجنرالات؟ مشهد متكرر منذ النكبة ومرورا بالنكسة.

ربما لو أصغيت إلى ابن خالتي شحدة لأصبح وضعي مختلفا الآن. شحدة قرر أن يصبح جنديا بعد أن أنهى الصف الثالث الاعدادي. حاول معي جاهدا أن نلتحق بالعسكرية. أخبرته بأني سوف التحق فيما بعد وأصبح جنرالاً ومسؤولاً عنه. كان شحدة يأتي دائما إلى القرية ويحدثني عن الجيش. أكثر ما كان يغيظه هو وجبة الغداء. دائما يخبرني أن غداءه عبارة عن قطعة (111). سألته مازحا, ماذا يعني ذلك؟

- يا ابن خالتي, يا ممدوح, عبارة عن قطعة من اللحم, مثلثة الأضلاع, وليس بالضرورة أن تكون متساوية الطول. أحاول أن أصنع منها مثلثاً متوازي الأضلاع, لم أفجح أبدا, كنت دائما أتذكر معلم الرياضيات وهو يتحدث عن المثلث المتساوي الأضلاع أو شبه المتوازي, كل محاولاتي باءت بالفشل ولم أفجح إلا بتشكيل شبه المنحرف. نضحك معا لهذا المصطلح. ضحكت أكثر لوحدي عندما أطلق الشعب لقب برلمان (111) على مجلس النواب السادس عشر. لا أعلم لماذا غضب نواب المنطقة من هذه التسمية؟ إنها جزء من تراثنا. ضحكت بهستيريا على هذه التسمية (111), كم تمنيت لو أن شحدة معي الآن, لأخبره أننا ما زلنا نأكل الأربع باءات " بندورة وبطاطا وبصل...!" ويبدو بأننا سوف نستمر على هذا المنوال, الله يديمها من نعمة. لقد هاجر شحدة إلى امريكا منذ سنوات ولم أره. في إحدى رسائله, وهي قليلة, سألني إن كنا ما زلنا نأكل الباءات الأربع. أخبرته أنها أصبحت ثلاثة والرابعة اختفت. قلت له إن الديك قرر أن يؤسس حزبا أطلق عليه اسم " حزب الديك". اقنع جميع الدجاجات أن الشمس لا تشرق إلا إذا سمعت صياحه كل فجر, وعليهن الانضمام إلى حزبه. وبدا بتقنين العلف على الدجاج المسكين. الفراخ اعتصمت بسبب نقص المؤن وقررت عدم طرح البيض. وهذا سبب كاف ووجيه لاختفاء الباء الرابعة من حياتنا.

لسوء حظي أو لحسنه, سيان, لم أكن جنديا, هذا كل ما أريده الآن. ما زلت اذكر تماما عودة عمي الجندي بعد نكسة حزيران. ركضت أنا وابنة عمي سلافة ناحيته كالمعتاد. لم يجلس كما في السابق ويفتح ذراعيه لابنته ليحتضنها ويرفعها عاليا في الهواء ليلتقطها ثانية, ثم يضعها على الأرض واسلم عليه بدوري. توقفت في مكاني, وكذلك ابنة عمي, ماذا جرى له؟ مشينا بخطى واهنة قصيرة نحوه, خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الخلف, امسك بابنته بيده اليمين. لم يتكلم ولم ينبس ببنت شفة. سألته سلافة " ماذا فعلت بالحرب يا أبي؟! " سؤال سهل ممتنع. هذا السؤال بالتحديد كان يجوب كل فضاء الأجواء العربية من قبل أبناء الجنود الذين كانوا يسألون آباءهم بكل براءة " ما ذا فعلت في الحرب يا أبي؟".

للمرة الأولى في حياتي أرى دموع عمي تتدحرج من مآقيها. عمي يذرف الدمع! أعز شيء عند الرجل دموعه. فكيف إذا كان جندياً! الرجل لا يذرف دمعا إلا إذا تعرض لقهر الرجال! أجاب عمي " باعوها وباعونا يا بنيتي ". عبارة شعرت معها بأن الأرض قد زلزلت, والجبال صدعت, والسماء أرعدت, وجميع الكائنات حشرت. يا لقوة هذه العبارة, وأنا متأكد من أن مقياس ريختر لا يستطيع قياسها أو تحملها. عبارة ما زالت ترن بكل قوة في دماغي, وتزداد شدتها عندما أتذكر وأرى جثث الجنود المتفحمة في طرقات كل البلاد العربية. عبارة يتردد صداها من المحيط الثائر إلى الخليج الهادر.

خرجت بعد المقابلة وأنا أشعر بارتياح كبير. الحمد لله انها جاءت منهم وليس مني. ربما لو أصبحت جنرالاً لصرت مثلهم ولا أعرف مصيري, ولا ماذا سوف أبيع!!.

وما أن وصلت القرية, حتى خلت أن الكل يصيح في وجهي :
" فلات فووت" وصل .

الفصل الثالث ذاكرة السمك

ذهبت الى وزارة المياه عدة مرات لاستلام مبلغ التعويض عن الأراضي التي استملكوها. إلا أنني عندما أريد مقابلة المدير. دائماً هناك إجابة محددة من السكرتيرة.

- المدير عنده اجتماع مش فاضي الك.

- المدير مش موجود.

- المدير مسافر ومش عارفة متي يأتي.

وكلما حاولت أن اشرح لها بأني لست من عمان , أنا من قرية السمرا, والمشوار يكلفني كثيراً, وعندما اسألها وبعدين مع هالحالة؟ لوت بوزها مثل إشارة سيارة "الهونداي", ولم تجبني.

خرجت من مكتبها, وجدت المراسل واقفا عند الباب, ربما شعر بحالي , نحن البسطاء نقرأ أفكار بعضنا جيداً, دنا مني وقال:

- ما هي مشكلتك؟

حكيت له كل شيء من طقطق إلى السلام عليكم.

- عندي الحل.

هات ما عندك ياخوي.

- اذهب إلى بيته في المساء, بعد الساعة الخامسة, ولا تخرج من عنده إلا وهو حال لمشكلتك . هذا عنوانه في عبدون. خذ تاكسي أحسن ما تضيع.

لم اكذب الخبر, واستقليت التاكسي , وينك يا عبدون؟ وقفت أمام فيلا فاخرة, وبوابة كبيرة يعلوها حجر رخام جميل جداً مكتوب عليه " هذا من فضل ربي". ضحكت والتفت حولي حتى لا يراني أحداً وأنا اضحك لوحدي. عندما كنت

صغيرا كنت اذهب مع والدي إلى مدينة الزرقاء, كنت أشاهد هذه الكتابة وكانت بدايات تعليمي قراءة الشواخص والاعلانات على المحال التجارية. دائما اقرأها " هذا من فضل دبي". كنت اعتقد بأن دبي لها الفضل في بناء هذه العمارات. سذاجة أطفال القرى.

قرعت الجرس, أطلت خادمة سوداء اللون وقالت بلكنة مكسرة:

- شو بدك ؟

قلت لها باني أريد المهندس تميم.

- بابا مو موجودة.

جاء صوت فتاة من الداخل يسأل:

- من يا يسمينة؟

- واحدة بدها بابا.

خرجت الفتاة وقالت:

- تفضل سوف يأتي بابا بعد قليل.

دخلت إلى صالون الضيوف, صالون ذي أثاث فاخر. جلست واضعا خدي علي قبضة يدي مفكرا, ناظرا إلى حوض السمك الكبير, فيه اسماك رائعة مختلف ألوانها. قاطعني صوتها:

- هل أعجبك حوض السمك.

- نعم... نعم... اعجبني كثيرا.

- ما اسمك؟

- أنا اسمي ممدوح.

- اسم جميل. تعرف يا ممدوح بابا يحب أن يجلس على هذه الكنبه التي تجلس عليها وينظر إلى حوض السمك. دائما يقول: لا تحك أفكارك وأحلامك ومشاريعك وأسرارك إلا للسمك, فقط للسمك. كان معلم العلوم يقول بأن ذاكرة السمك لا تتعدى ثلاث ثواني. في ركن الحوض سمكة سوداء اللون.

- قلت لها إن والدها رجل ذكي.

- أجابت بكل لطف ومجاملة, نعم انه كذلك. واسترسلت في الحديث.
كان في إحدى الليالي جالسا هنا لوحده يحدق بحوض السمك. وكنت مع أخي
في الغرفة المجاورة, أساعده في مادة الرياضيات "التوجيهي". فجأة سمعناه
يصرخ

- " وجدتها...وجدتها...وجدتها..."

هرولت إليه راكضة وقلت له مازحة:

- ماذا وجدت يا " ارخميدس"؟

تعالى واجلسي- بجانبى, انظري إلى حوض السمك. نظرت إليه. لا يوجد فيه
جديد, لا يوجد اسماك نافقه.

- ضحك بصوت عال , انظري إلى تلك السمكة السوداء في ركن الحوض.
ماذا نسمي هذه السمكة؟

- إنها الشغالة يا بابا تقوم بالتقاط جميع فضلات الحوض. فرك يديه
فرحا. دائما أقول لا تحك أفكارك إلا للأسماك.

- نعم...منذ زمن وأنا أنام افكر واحلم أين يمكن أن انشئ- محطة تنقية
فضلات عمان. الآن أرى هذه السمكة السوداء, أو السمراء, لا يهم. سوف تكون
منطقة السمراء هي المنطقة المنشودة.

يا الهي! حتى عند الاسماك شغالات بلون اسود. معلم التاريخ قال إن
المهاجرين الجدد إلى أمريكا كانوا يصطادون الافارقة السود ويشحنوهم الى
امريكا في سفينة تدعى " المسيح". تحملهم إلى الحلم الأمريكي للسخرة. وجاءت
أفلام هوليوود لتجسد بأن الأسود هو من يموت أولاً. حتى في الأفلام لا توجد
فرحة للاسود. تجارة الرقيق من السود. حتى هذه السمكة السوداء لم تسلم
من الذل والهوان. أين أنت يا عنترة العبسي

" ولولا سواد الليل ما طلع الفجر".

هناك إلى جانب حوض السمك توجد مكتبة تحتوي الكثير من المجلدات بأغلفة مذهبة. تعلوها شهادات جامعية بإطارات مذهبة أيضا. تذكرت رواية "زوربا اليوناني" التي استعرتها من مكتبة المدرسة الفقيرة. أعجبتني جدا. كان زوربا يسخر من المتعلمين, كان يبصق على شهاداتهم, ويبصق على كتبهم. كم كنت مؤدبا يا زوربا اليوناني. أرغب أن أبول على كل كتب المتعلمين والمثقفين, وارش عطر بولي على كل شهاداتهم وكتبهم. قطع تفكيري دخول شاب في مثل سني, شعره منفوش ولحية خفيفة تغطيها بعض الشعيرات المتناثرة هنا وهناك. أخبرها بان والده قادم, وإذا ما كانت ترغب أنيحضر أي شيء معه. عرفتني أنه أخوها وأنه نجح في التوجيهي بمعدل واحد وخمسين وقد حصل على منحة لدراسة الهندسة في بريطانيا. والتفتت إلي وقالت :

- كم كان معدلك في التوجيهي يا ممدوح.
- أجبته وأنا شارد الذهن, تسعة وثمانين.
- وقالت ما رأيك بأخي؟
- مثل مرياع الغنم.
- ماذا يعني مرياع الغنم؟
- الموضوع صعب شوية أن اصف المرياع.
- أعطني نبذة مختصرة فقط.
- المرياع هو الخروف المدلل في القطيع, ودائما يمشي. وراء حمار الراعي. وهو الوحيد من بين الأغنام الذي لا يجز صوفه. وكذلك لا يشارك في موسم " حناء الأغنام".
- يعني هو....
- بلى, انه....

- ضحكت كثيرا, يبدو أنها أول مرة تسمع عن المرياع.

*

دخل المهندس البيت , وقالت له ابنته:

- بابا أكيد تعرف ممدوح . أرجوك أن تحل مشكلته.

التفت نحوي وقال:

- على شأن خاطر ابنتي اعتبر مشكلتك محلولة. واعتبر نفسك إنك موظف

في محطة تنقية السمرا . سوف تكون أمين مستودع , مسؤولا عن جميع المواد

الداخلة والخارجة. ضبط وربط الأمور. أنا مسؤول عنك مباشرة.

الفصل الرابع

زقل

بدأت العمل, وبدأت الجرافات تلتهم الأرض. عمال ومهندسون من كل بقاع الأرض, وخبراء لا اعرف من أين أتوا وماذا يفعلون. المشروع بحاجة إلى كميات كثيرة من التراب من اجل البرك, برك كبيرة وعميقة من أجل تنقية المياه على مراحل متعددة ومتكررة. لا أحد كان يرغب ببيع التراب وجرف أرضه. المختار مرعد العلي "زقلل" الشخص الوحيد الذي رغب ببيع تراب أرضه. لا احد يعرف من أين أتى؟ ولكنه موجود هنا, عندما يضحك بصوت عال , من على بعد تعرف بان زقلل موجود. يبدو فمه فارغا من الأسنان, اللهم إلا بعضها متناثر في جوف حلقه, تماما مثل حجار الخربة السمرا المتناثرة بدون ترتيب. انه وحيد, لا زوجة ولا عيال. ولمن يترك الأراضي الذي يمتلكها؟ سوف أبيع تراب ارضي لهم, قراره وحده. يقول إن أجداده حضروا مع صلاح الدين, وأمرهم بأن يبقوا هنا حتى يكونوا خط دفاع متأخر وقوي لمواجهة العدو الصليبي. دائما يفاخر بأن أجداده هم الذين حرروا القدس وانتصروا في معركة حطين. وهو آثر أن يبقى في أكناف بيت المقدس .

عندما ذكر معلم التاريخ معركة حطين, سأل أحد الطلبة المعلم عن صحة رواية زقلل. قال المعلم:

- هذا هراء, إنه وهم. يعيش في وهم, مثل معظم الشعراء, الذين يبكون على الحبيب وفي الحقيقة, لا حبيبة لديهم ولا " دخان جلة". فقط يوهمون الناس بأن هناك حبيبة, ورحل عنها إلى بلاد الله الواسعة ثم عاد ليطوف بالأطلال ويتغنى بما كان.

أهيم بدعد ما حييت فان أمت

فياحسرتي من ذا يهيم بها بعدي

وهم ونسج خيال. مثل اغانينا في هذا الزمن الرديء التي تتحدث عن لوعة الحب وفراق الحبيب ونار الهجران. الواحد منا لم يبلغ الفطام ويبكي على الفراق ويعاني من سهر الليالي وهجران المحب وصدده. وهم في وهم . مثل دوائرنا الانتخابية الوهمية ووهم القوائم الوطنية الانتخابية.

زقلل كان بارعا في خلق الأحداث, وكل له من اسمه نصيب. ذات ليلة من ليالي شباط الباردة. رجال مجتمعون بعد صلاة العشاء حول نار يستأنسون بدفئها. دلة القهوة مركونة على جانب أجميرات التي بدأت تغفو في حضن الموقد. جال ببصره حول الجالسين وقال:

- من الشجاع ابن الشجاع منكم الذي يستطيع أن يذهب إلى المغارة التي في أعلى الجبل, جبل الزميلة, وان يدق وتدا على بابها, وجائزته ما يشتهي من الحلاوة والراحة. مغارة في أعلى الجبل, والكل يعلم بأنها مأوى للضباع وفي أيام الصحو لا أحد يجرؤ على الذهاب هناك, فكيف في ليل بهيم! أخذت الحمية أبو علي وقال :

- أنا مستعد أن اذهب وأدق الودت ونهار الغد تذهبون وترونه بأنفسكم. صمت الجميع. وساد السكون السهرة, سكون لم يقض مضجعه إلا صرير الريح في الخارج. وكم تعطيني من الراحة والحلاوة؟

انفرجت أسارير زقلل وفرك يديه فوق النار ومسح لحيته وقال:

- طلبك بلسانك يا أبو علي. هذا الودت أمامك وعليه علامة حمراء حتى نتأكد من أن الودت نفسه. وكرمال خاطر الحاضرين سأعطيك مني ثوباً جديداً "هدية ما من وراها جزية".

دنا زقلل من الحاج عبيدان المرعي وسعيدان المانع وهمس بصوت خافت:

- يا ليت تذهبون خلفه , تابعوه عن بعد دون أن يحس بكم أو يشعر بوجودكم . يجب أن تتأكدوا من ذهابه. ثم تابع حديثه بعد أن رأى عدم الاهتمام عندهم. يا جماعة تعرفون أنني اشتريت بالفلوس التي أخذتها من بيع التراب سيارة " بيك اب دبل كابين" هذه السيارة على حسابكم لنقلكم ونقل اولادكم واغراضكم أين ما تريدون. أنا تحت أمركم في أي وقت, أفضل ما تظنوا تمشوا دون أن تجدوا سيارة تقلكم.

بدأ مفعول كلام زقلل يأتي بالنتيجة. تابع كلامه:

- يا جماعة أنا أفعل ذلك وأنتم تعلمون بأنه ما عندي لا ولد ولا تلد. أنتم أهلي وهذه الأموال لكم. يعني من سوف يرثني غيركم. أنتم أهلي وعزوتي, مين لي غيركم.

- سوف نتبع أبا علي ونرى أين سوف يثبت الوتد.

وصل أبو علي المغارة وبكل شجاعة بدأ بغرز الوتد على بابها. رجل قوي البنية, يرفع عجل التراكاتور بين يديه كطفل يرفع لعبته عاليا ليفاخر بقية أقرانه أو ليقهرهم. تنفس الصعداء بعد أن غرز الوتد في الأرض ولم يبق ظاهرا منه سوى بضعة سنتمترات مصبوغة بالأحمر. وضع المطرقة تحت إبطه الأيمن, حاول السير راجعا إلى القرية, لم يستطع. شيء ما يشده إلى الورا ببقوة. بدأ الخوف يسري بين جوانحه , ماذا جرى؟ يبدو أن الضباع صحت من نومها وأمسكت بي , لم يجرؤ على النظر إلى الخلف من شدة خوفه ومن خشية أن تبول الضباع على وجهه ويصبح أسيرا عندها ووجبة شهية لها.

من على بعد , من خلف السنسلة الحجرية الحاجان يراقبان أبا علي. همسا فيما بينهما ما ذا جرى له؟ الرؤية غير واضحة تماما, ولكنه لا يستطيع أن يتحرك . شيء ما يشده إلى الخلف.

مسكين أبو علي لم يكن يعلم بأنه عندما كان يغرز الوتد كان يغرزه على طرف ثوبه. حاول أن يجري دون جدوى كان الخوف يمتلكه, وبعد جهد جهيد سحب جسده من ثوبه وتركه مثبتا بالوتد وبدأ يركض بلباسه الداخلي. صاح الحاجان:

- عفريت عار قادم نحونا , صاحا الهزيمة ثلثي المراحل.
ثلاثتهم يركضون ولا أحد يلتفت وراءه. أصابهم مس من الجن. لم يستطع أي احد من القرية معالجتهم.

بعد اشهر قليلة وفي يوم ربيعي وقفت سيارة فاخرة فارهة أمام دكان المختار زقلل. ترجل منها رجل حسن المنظر يرتدي بدلة فاخرة وربطة عنق زاهية اللون, يعض على غليون تحت شدقه الأيمن. سأل بكل أدب:

- وين ممكن أن اجد المختار مرعد العلي؟

- وصلت يا باشا, أنا المختار بلحمه وشحمه.

أنا يا مختار مدير محطة تنقية السمرا الجديد وأول ما فكرت أن أتعرف على شخصك الكريم. لا نستطيع أن ننسى. أفضالك ولا معروفك عندما رفض أهل القرية بيعنا تراب. أنت ممثل الحكومة وكل أركان الحكومة فخورة بكم يا مختار. أجاب المختار:

- تفضل اجلس يا باشا قالها وهو يمسح الغبار عن الكرسي. تفضل واشرب زجاجة بارد. اطفئ محرك السيارة يا باشا, بلاش تصرف بنزين.

- البنزين على حساب الحكومة. عادي أن يبقى المحرك شغالاً. شو أخبار القرية يا مختار؟

- أحوالها ما تسر. لا صديق ولا عدو. الشيخ مناور أعطاك عمره من زمان. والحاج عبيدان والحاج سعيدان الله يكون بعونهم. ما يعرفوا أين القبلة! وتراكتور ابو علي واقف, صار كومة حديد.

وقف الباشا وقال:

- أنا عندي علم بكل هذه الأمور . لا تظن يا مختار بان الحكومة ناسيتكم .
دس يده إلى جيب بدلته الداخلية. أخرجها فارغة. ضرب كفا بكف, صاحبه
صفير من فمه. يبدو إني يا مختار نسيت الفلوس بالبيت. الحكومة أعطتني
عشرين الفا من الدنانير لأسلمها لك لتوزعها بمعرفتك على سكان القرية.
انفجرت أسارير المختار, وبدأت الابتسامة تلوح على محياه.

- عجيب يا باشا! عشرون ألفا من الدنانير لأوزعها بمعرفتي!! . هناك قول
دارج في القرية يا باشا

" لا نراكم إلا عندما يكثر....", ولكن يبدو بأن لكل قاعدة استثناء.
لا بأس يا باشا , تعال غدا واحضر الفلوس معك.

لا استطيع أن آتي غدا. في الصباح اجتمع هام في المحطة, تعرف إني مدير
جديد " وما إلي بالقصر. إلا أمس العصر." وآخر النهار اجتمع مع مجلس الوزراء
, يجب أن أقدم لهم تقريراً عن أوضاع المحطة من اجل الحصول على قرض
لتطوير المحطة, . ربما استطيع أن آتي بعد شهر.

فكر زقلل مليا. عشرون ألفا!! سوف أضيف هذا المبلغ إلى رصيدي. ذهب إلى
داخل الدكان وعاد حاملاً صندوقاً أثرياً مزيناً بأحجار كريمة. فتحه أمام الباشا
وقال:

- سوف أعطيك دينا عشرين ألفا وغدا صباحاً أنا سوف أكون في مكتبك
وتعيدها لي مع العشرين ألفا الأخرى. تسليكة حال لليوم, ليس من المعقول أن
يمشي الباشا وما بجيبته فلوس.

نظر الباشا إلى الصندوق, ثم نظر إلى سيارته. تأكد أن المحرك ما زال شغالاً,
بلمح البصر. اختطف الصندوق. ولم ير زقلل سوى زوبعة تراب أمام عينيه
أحدثتها عجالات السيارة من شدة سرعتها.

الفصل الخامس المرض

شعرت بتعب شديد ووهن أشد, إذ كنت دائما أشكو من احتباس البول. أذهب إلى طبيب المحطة ودائما التشخيص نفسه, عندك التهابات في المجاري البولية, ودائما مضادات حيوية, لا تفيد ولا تشفي. والنصيحة نفسها اشرب كثيراً من الماء. الله يرحمك يا جدي, كم كنت تشفين المرضى , والمعالجة بالوصفات العربية والكل يذهب شاكرا وحامدا. كانت تستعمل (شق) البيت في علاج الذكور وأما النساء ففي المحرم. كانت لا تقبل من أي رجل أن يتكلم عن مرضه أو مشكلته على انفراد, على كل شخص أن يتكلم أمام الجميع دون خجل أو وجل. اذكر في إحدى المرات أن جاءها رجل, ليس من أهالي المنطقة, حسن المظهر, جيد الهندام, معه ابنه مصاب بالشلل ولا يستطيع المشي, عمره يقارب أربعة عشر عاما. قال الرجل:

- والله يا حاجة ما خليت لا طبيب ولا مدواي وحالة الولد لم تتحسن. نظرت جدي إلى الولد, تفحصته بعينيها, لم تلمسه ثم أجابته:
- لا دواء لابنك عندي. يا ناس صلوا أرحامكم, زكوا أموالكم, تصدقوا على الأرامل والأيتام وجيرانكم الفقراء والمعوزين. خففوا من زوادة الدنيا حتى تلاقوها في الآخرة. " ما خليتوا لكم لا صديق ولا بلال ريق".
- لم ينطق الرجل بأية كلمة, كأن على رأسه الطير, لم يرد عليها وشعر بالحياء من كلماتها. هم الرجل بالمغادرة, قالت له جدي:
- استطيع أن اشفي ابنك بشرط واحد.
- التفت إليها الرجل , ربما وجدت بصيص أمل في شفائه, وقالت:
- شرطي أن تحضر لي شخصا معافي يستطيع أن يأخذ كل أمراضه.
- رحل الرجل ولم يلتفت خلفه.

ولكن كيف عرفت أنه لن يقبل بشرطك يا جدتي؟

- يا جدي يا ممدوح ما في عاقل في الدنيا يقبل أن يأخذ مرضا حتى لو أعطوه مال قارون, مع أنه لا يجد عشاءه في تلك الليلة.

- والله يا جدتي كلامك جميل ولقنت هذا الرجل والسامعين درسا رائعا, أروع من الدروس التي كنا نتلقاها من معلم الدين.

- ما لي شغل لا فيك ولا بمعلم الدين تبعك. ما تنسى. تجيب حجار "بطاريات" للراديو المرة الجاية.

كان معلم الدين دائما يجلد الطالب مبارك, يبدو أن لدى هذا الطالب صعوبة تعلم ومشكلة في الحفظ. يدخل المعلم الصف, ويسأل:

- أين وصلنا بالدرس؟

- سورة النصر يا أستاذ, أجابه جميع الصف.

طيب, قوم يا مبارك وأتل علينا سورة النصر.. يقوم مبارك بقراءة السورة, ودائما يخطيء في آخر كلمة, يقرأ "بوابا" بدلا من "توابا". فيشتد غضب المعلم عليه. وأين جنبك الذي يوجعك يا مبارك.

ترك مبارك المدرسة مبكرا, غير نادم على ذلك, والآن يعتبر من أشهر تجار السيارات المستعملة في المملكة. عنده عدة معارض في مختلف المدن وفي المناطق الحرة "الكريم يوم يعطي يدهش ويوم يأخذ يفتش".

أخيرا قرر الطبيب تحويلي إلى مستشفى الزرقاء الحكومي. دخلت المستشفى, وخضعت لجميع الفحوص الطبية, اجتمع الأطباء وقرروا وجوب إزالة كليتي اليسرى لأنها تالفة. سألت عن سبب تلف الكلية أجاب الدكتور:

- لا نعرف ولكن هناك احتمال قوي أن ذلك ناتج عن استنشاق الأبخرة العادمة.

- نعم انها أبخرة المحطة , فأنا منذ ثمان سنوات عجاف اعمل هناك واستنشق تلك الأبخرة بالروح وبالغدو.

سوف يحضر- الطبيب الجراح من عمان, بعد أسبوع وسوف يتم استئصال الكلية اليسرى.

جلست في غرفة التحضير قبل دخول غرفة العمليات . جاء الطبيب الذي سوف يجري العملية, في خريف عمره, يخالط شعره البياض مع السواد, وقال:

- اسمع يا سيد ممدوح , العملية بسيطة ولا خوف منها, أجريت مئات العمليات مثلها. اقتلاع الكلية اليسرى مثل اقتلاع شوكة من قدمك, وسألني إن كنت خائفا؟

- أنا مرعوب يا دكتور, فقط وجودي في هذه الغرفة يرعبني, لا أحد كما ترى معي في غرفة العمليات, حتى ظلي تخلى عني! إن ظلي يؤنسنني في وحشتي, دائما اكلمه وأشكوهمي له , أخبره عن أحلامي وتطلعاتي وآمالي وأسراي. مثل المهندس تميم عندما يخبر أسماكه عن مشاريعه وأحلامه وأسرايه. أنا أخبر ظلي لأنه كاتم أسراي , لا يبوح لأي مخلوق عنها ومن لي بكاتم أسرار خير منه! ولكني لا أجده معي الآن. طول عمره معي والآن أنا بأشد الحاجة إليه, لا أراه ولا أجده! إن فقدان ظلي شيء مخيف ومرعب.

قال الطبيب بنبرة مشفقة:

- كثير من الأشخاص يعيشون عمرا مديدا بكلية واحدة يا ممدوح. شعرت بارتياح عندما قال ذلك وذكر اسمي " ممدوح". ارتياح غريب لوجود اسمي معي على الأقل, ليس مثل ظلي الذي خانني وتركني وحيدا. ممدوح يا اسمي أين أنت؟ أشكرك بأنك بجانبني. يكفي أنني مريض وأنت معافي. ماذا لو مرضت يا اسمي؟ ماذا سيكون وضعك وماذا سيحل بك؟ ربما لا شيء, فأنت عندك حرفان من حرف الميم, مثلي تماما عندي كليتين, لو مرضت سوف

يزيلون حرف ميم واحد, ويبقى اسمي "مدوح". لا يهم أن يزيلوا الحرف الأول أو الذي يليه, سيان. نسيت كذلك أن الجميع نسوا اسمي أصلا ولا ينادونني إلا " فلات فووت" الحمد لله , هناك حرف " الفاء" احتياط في لقبى. ينادونني " فلات ووت" أو " لات فووت" لا يهم, يبدو أن لها جرسا موسيقيا على الأذن. ربما تكون أغنية جميلة على فراق حرف اسمي, أفضل من وهم أغاني فقدان الحبيب. ولكن لم اسمع أن أسم أي شخص في العالم مرض وتمت معالجته. استفقت من العملية لا أعرف متى؟ اخبرني الطبيب بأن تأثير البنج كان قويا وسبب لي الهذيان.

الفصل السادس

ملء السنابل تنحني تواضعا

والفارغات رؤوسهن شوامخ

بعد شفائي من المرض وفقدان كليتي اليسرى قررت أن أترك عملي في المحطة, وقررت عندها أن ما يناسبني هو أن اشتري أرضا وازرعها, ولن ازرع سوى القمح, فقط قمح, قمح حوران ولا سواه. كما قال والدي كنا نزرع قمح حوران واستبدلناه بقمح لا نعرف مصدره, قليل البركة.

تجولت في الأراضي التي حول البلدة. أريد أن اشتري أرضا لزراعة القمح. لم أجد أية قطعة يمكن زراعتها. هل اختفت الأراضي فجأة! أين هي؟ هناك بيوت كثيرة متناثرة على مساحات الأرض الزراعية. كل شخص يبني بيته في قطعة أرضه ويزرع حولها زيتونا بدلا من القمح, أو باع أرضه لأشخاص من خارج القرية وبنوا فيها منازل وغرسوا اشجار الزيتون, تحيطها أسلاك شائكة. شيء عجيب غريب جدا. آباؤنا وأجدادنا, رغم قلة عددهم, كانوا يرفضون البناء في أي قطعة أرض زراعية, يعتبرون ذلك رجسا من عمل الشيطان. لا أرى زرا ولا رعاة أغنام. هكذا بكل سهولة وبساطة هلك الزرع وجف الضرع!.

عمي أبو سلافة اقترح أن ازرع زيتونا مثل بقية سكان القرية. طاف المهندسون الزراعيون أرجاء البلاد لإقناع الناس أن زراعة الزيتون أفضل كثيرا من زراعة القمح, ومردوده المادي أفضل بكثير. كان بصحبتهم خبراء أجانب يتحدثون اللغة العربية بلكنة مكسرة, ويقولون للمواطن البسيط إنها شجرة مباركة ورد ذكرها في القرآن الكريم وحرام أن لا نطيع أمر الله.

كل الخواجات أصبحت تفتي أين الحلال وأين الحرام!. هكذا قال عمي المسكين الذي صدقهم وزرع أرضه زيتونا. بل إن البرامج التلفزيونية والإذاعية والدعائية

الزراعية تقول :

" اقلع القمح

وازرع الزيتون

وغير هيك

تكون مجنون".

الواحد احتار من هو المجنون؟ هل هو المواطن المسكين مثلي! أنا لا أريد زراعة الزيتون أبدا، أريد أن ازرع قمحا. والدي كان يقول الذي لا يزرع قمحا يغضب وجه الله. كان يستشهد بقصة سيدنا يوسف عليه السلام، أمرهم بزراعة القمح ولا شيء سواه. لم يأمرهم بزراعة الزيتون يا خواتم. من أيام الفراعنة إلى عهد قريب والمصريون يحتفلون سنويا بعيد القمح.

" القمح اليوم يوم عيده

يا ربي تبارك وتزيده".

أغنية عبد الوهاب التي كان والدي يحب أن يسمعها دائما. ولقد اختفت هذه الأغنية الآن مع " زحمة الدنيا".

في كل ثقافات العالم للقمح أهمية كبيرة جدا. معلم الزراعة قال إنه مخطط مقصود للقضاء على زراعة القمح. إنه مخطط يستهدف وجدانا وثقافتنا وأحلامنا وتراثنا، هذه القوى تخطط لنا زراعة الزيتون فقط مثل ما خطت لكوبا زراعة قصب السكر وفيتنام الأرز... الخ. والمضحك المبكي اننا نشترى القمح منهم.

ما زلت اذكر كلمات معلم البيئة. كان درسنا في الكتاب المقرر عن الدورة البيئية والسلسلة الغذائية. فأر يلتهم قطعة جبنة، وقط يلتهم الفأر وكلب يلتهم قطعة لحم بقري، ربما حنقا عليها التي أنتجت جبنا للفأر. ترك المعلم الكتاب جانبا وقال:

- هذا كلام جرايد. اقرأوا الدورة البيئية من بيئتنا، فهي ليس مثل التي بالكتاب مترجمة وما لها طعم. في العطلة الصيفية عندما تذهبون مع أهاليكم

إلى حصاد القمح. أول خطوة يقوم بها الحصادون هو حصد القمح ووضعه على شكل أغمار في الحقل.

من أروع المناظر ترى الحصادين صباحا، الكل ممسك بمنجله بيده اليمنى وجزة قمح في يده الشمال، يجزها بكل ليونة، مداعبا سنابل القمح ومنشدا:

" منجلي يا منجلاه

رايح للصايغ جلاه

ما جلاه الا بعلبه".

وتزداد وتيرة حدهم عندما يرون الفطور قادمًا وبالأخص إذا كانت حاملة الفطور فتاة.

وتابع المعلم حديثه. بعد ذلك يأتي بعد الحصادين الغمارون ومهمتهم جمع الأغمار ونقلها بواسطة " الشليف " إلى منطقة البيدر.

علا صوت المعلم قليلا وتابع, بعد ذلك يأتي دور فئة من الناس تدعى

" لقاط وري حصاد", هذه يا شباب مسموح لها التقاط سنابل القمح اللتي على الأرض. وهذه الفئة من الناس عادة ما تكون فقيرة, وهذا حقهم ومتعارف عليه, ولا يأخذون شيئا من الزرع.

وفي المرحلة الأخيرة يأتي الراعي مع أغنامه لترعى ما في "الحقلة". تأكل وتهجع وزبلها سماد للأرض استعدادا لموسم الحراث القادم. وهكذا تستمر الدورة البيئية. عبارة قالها المعلم قبل قرع الجرس بثوان.

اقتنعت أكثر أن لا أزرع إلا القمح. يا جماعة هذا الشأن أكثر من زراعة قمح. انه تراث ومعيشة. كل الزيجات تتأخر إلى ما بعد " قش البيدر". هناك " سواليف حصيدة" في حصاد القمح. لا توجد " سواليف فراط زيتون" في تراثنا ولا يوجد تأخير الزيجات إلى ما بعد فراط الزيتون. رغم أن جميع " سواليف الحصيدة"

تتحدث عن بطولات خرافية قام الحساودن بها, ومعظمها "صراع مع الضباع",
هكذا أسميت المسلسل الجميل الذي لا تنتهي حلقاته وتتجدد تلقائيا مع كل
موسم حصاد.

لم أجد الأرض المناسبة لشرائها وزراعة القمح. بلاد الله واسعة, سوف اشترى
في أي منطقة في البلاد لأحقق حلمي.

الفصل السابع

الخ...الخ...الخ

كانت حصة اللغة العربية قبل الأخيرة , وكتب المعلم على اللوح:

(وما نيل المطالب بالتمني..ولكن تؤخذ الدنيا غلابا)

وظيفة بيتية يا شباب, من قائل هذا البيت؟ شرح البيت , إعراب كامل للبيت,
الخ...الخ...الخ.

دخل معلم العلوم وبدأ بمسح اللوح, عادة ما يقوم معلم الحصة بمسح اللوح
عند بدء حصته. مسح كل اللوح وأبقى على الكلمات الثلاث, الخ...الخ...الخ.
نظر الينا وكانت ملامح عدم الرضا بادية على محياه, في كثير من الأحيان كنا
نعرف نفسية المعلم إن كان مسرورا أم لا. إن كان راضيا أم لا. حتى كنا نتهامس
إنه زعلان مع زوجته.

قال بأن درسنا هذا اليوم سيكون عن هذه الكلمات الثلاث.

تعرفون يا شباب أن في الجسم عدة أجهزة, وكل جهاز له وظيفته المنوطة به.
جسم الإنسان, بل الإنسان، أغرب واعقد شيء في الكون. ونظرا لأن الأمور لم
تكن على ما يرام بين هذه الأجهزة, فقد قررت باجتماعها أن تختار مديرا لها,
يدير شؤونها ويعتني بأمورها. ومن باب الديمقراطية تم فتح المجال لجميع
الأجهزة للتنافس والفوز بهذا المنصب.

كان أول المتحدثين الجهاز العصبي , وقف قائلا:

- بلا شك أنا الوحيد الذي يصلح لهذه المهمة. أنا من أتحكم بحركاتكم
الإرادية واللاإرادية. أنا من يفكر ويخطط لكم ما هو أفضل. أنا من يمدكم
بالإحساس الدافئ والملمس الناعم, أنا من يعطي الأوامر للعصبونات للتحرك
ومهاجمة من يريد بكم شرا. أنا العقل الرزين الذي يمدكم بأحلامكم الوردية.
قاطع الجهاز التنفسي:

- أنا هنا. أنا من يزودكم بالاكسجين, ويخلصكم من ثاني اكسيد الكربون. أنت أيها الجهاز العصبي لولا غذاؤك الذي هو من أكسجيني, لا تستطيع خلاياك الحياة. أنت ميت وأنتم كذلك ميتون بدوني. أنا من يستحق أن يكون مديرا.

- أسكت يا تنفس, عبارة قالها الجهاز التناسلي, أنتم من ذراري, ولولا وجودي ما كنتم موجودين, أنتم من نسلي, فكيف تتناولون, احترموا الذي خلّفكم, أنا الوحيد من يصلح لهذه المهمة.

- جاء جهاز الإخراج يمشي. الهويني, إذ كان يجلس بعيدا عنهم في أقصى. القاعة. الكل يتحاشاه ويتعد عنه تجنباً لرائحته. الكل ضغط على فتحتي أنفه بابهامه وسبابته. ببالح الهدوء قال:

- لا تستطيعون الآن أن تتنفسوا من أنوفكم، إنكم تتنفسون من أفواهكم والى متى سوف تستمرون على هذه الحالة؟. شيء رائع أن أنوفكم مغلقة وأما آذانكم فاني أراها صاغية, فانا متأكد من أنكم تسمعوني جيداً . فكل ما أدليتم به لا يهمني بتاتا لا من قريب ولا من بعيد. تعرفوني جيدا وتعرفون خطورة جهازي, وتعرفون عواقب عدم الاخراج, جميعكم أموات , ولا استثنى أحدا منكم.

نظرت جميع الاجهزة إليه, الكل صامت, حتى الأجهزة الصغيرة مثل السمع والبصر كانت واجمة. لم يستطع أي جهاز أن يرد عليه بكلمة واحدة, الجميع في حيرة ودهشة كأن على رؤوسهم الطير. وهكذا أصبح "الخ" مديرا.

جميع طلاب الصف شعروا بالحزن لعدم تعيين معلم العلوم مديرا للمدرسة. يقال بأن أحد المدرءاء تم نقله تأديبيا إلى مدرستنا. والله يا اساتذتي إنكم " فطاحل " ولكن " ناي الحي لا يطرب".

الفصل الثامن

قابلية

أخبرت كل من أعرف من تجار الأراضي بأني أرغب في شراء أرض لزراعة القمح. جاءني أحدهم وأخبرني أن تحت يده أربعين دونما من الأراضي في منطقة تدعى "قابلة", تعتبر من الحدود الشمالية لمحافظة عجلون . ذهبنا سويا لرؤية الأرض. أرض وعرة نوعا ما مقارنة بأراضي السمرا ولكنها جميلة. قال صاحب الأرض بأن نسبة الأمطار هنا جيدة, عداك عن الندى, طول عمر أهلي يزرعون القمح هنا. أنا هاجرت إلى امريكا وقررت أن أعيش هناك, لا أرغب بالعودة للعيش في الأردن.

قلت في نفسي. ما هو سر هجرة العالم لأمريكا؟ مع أننا كل يوم نكيل لها مئات الأطنان من الشتائم. قلت له:

- إن لي ابن خالة هاجر إلى أمريكا. اسمه شحدة, ربما تعرفه!

أجابني بأن امريكا بلاد واسعة وشاسعة, لا أحد يعرف أحداً ولا يكثرث بأحد. اتفقنا على السعر, فهو في عجلة من أمره, وكذلك أنا, فمع نهاية الصيف هو يرغب في العودة إلى موطنه أمريكا وأنا أرغب في بدء الموسم. وضعت "الكوشان" في جيب معطفي الداخلية, قريبا من قلبي. أنت منذ اليوم تملك أربعين دونما في منطقة قابلة يا ممدوح.

مع بداية الخريف قررت أن ابذر الأرض قمحا, اشتريت من الرمثا أجود أنواع القمح " قمح حوران" لا يعلى عليه , نخب أول. مسكين أبو علي لا يستطيع أن يقود التراكاتور. لقد اعتدنا عليه في مثل هذه الأمور. لا يهم , هناك الكثير من التراكاتورات في المنطقة, هذه ليست مشكلة.

بدأت برشق الأرض بحبات القمح, شعرت أني في الأعالي فوق القمم, لا بل فوق السحاب من شدة فرحي. رأيت السحب تحتي , وددت فعلا لو أستطع أن ازرع السحاب قمحا. أنا عاشق للقمح ولا سواه. نظرت إلى السحب وقلت لها عودي فيما بعد لتروي قمحي.

في نشوة فرحي, وقفت سيارة بنمرة حمراء بمحاذاة أرضي, ثم تبعتها سيارة أخرى. ترحل الجميع من السيارتين. تقدموا نحوي. قلت في نفسي- اللهم اجعله خيرا.

تقدم أحدهم , يرتدي بدلة كحلية اللون و ربطة عنق. بعد السلام, أخبرني بأنه المحافظ وهؤلاء أعوانه.

- أنا ممدوح ومثل ما ترون ابذر القمح في أرضي, قبل أشهر قليلة اشتريتها. قال المحافظ :

- إنها لم تعد أرضك يا ممدوح.

أدخلت سباتي في أذني. ربما أعاني من صمم. لم أفهمك أيها المحافظ, ماذا قلت؟

- قلت لك بأنها لم تعد أرضك لقد استملكها الحكومة لإنشاء محمية للحيوانات الشاردة.

- عن ماذا تتكلم يا رجل؟ محمية ماذا؟ ليس لي دخل بكم أو بحمياتكم.

- هذا قرار مجلس الوزراء باستملاك الأرض. رماه نحوي وعاد هو وأعوانه إلى سياراتهم.

جلست على إحدى أحجار الدير المتهدم المحاذي لأرضي. ما في غير ممدوح في البلد!!!؟ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فلم يروا غير الأرض التي اشتريتها حتى يحولوها محمية؟

يا رب لطفك!

يا عذراء غوثك!

هناك اثار دير ماثلة وستبقى إلى يوم القيامة, تذكرنا بسيدنا المسيح ومعاناته
في الأرض . ضحى بجسده من أجل أمة ضالة, وبعد صعوده إلى السموات بدأ
البكاء والنحيب عليه, ومتى يعود لإنقاذ البشرية؟!.

سأعود معك أيها المسيح ونعمر بيتك ونزرع قمحا.

وعندها...

الشمس تشرق مرتين

التاسع الفصل

الرحيل

عاد شحدة ابن خالتي مشاتي إلى القرية فجأة. منذ سنوات لم يأت, سوف اذهب إليه, أنا بشوق إليه. وجدته جالسا وحيدا هناك على عتبة الباب كما في السابق. كنا في الصف نفسه. في بداية زواج خالتي مشاتي , لم يكن بوسعها الإنجاب, دائما اجهاض,اجهاض متكرر, ولا أحد يعرف السبب. الأطباء قالوا إن كل شيء تمام ولا شيء يمنع من الانجاب. ذهبت إلى الحج هي وزوجها مع مجموعة من أهل القرية. تعلقت بأستار الكعبة وطلبت من الله بأن يرزقها أو يشحدها ولدا, ونذرت أن تسميه شحدة.

مات أبو شحدة من مرض السل وهو صغير, بالكاد يتذكر ملامحه.

بعد أن انهينا الصف الثالث الإعدادي قرر أن يذهب إلى الجيش كي يعيل نفسه وأمه. دائما كان يود أن يصبح جنديا, بعكسي- تماما كنت ارغب أن انهي التوجيهي والتحق بالكلية العسكرية لأصبح جنرالاً.

اختاروا شحدة ومجموعة من رفاقه للالتحاق بدورة خاصة في امريكا. قبل أن يسافر اخبرني إنه مرعوب من السفر ومن الذهاب الى امريكا. هذه أول مرة يسافر فيها خارج الاردن. لم استطع أن اساعده في تخفيف توتره, لأنني لم اسافر أبدا في حياتي, ولم أعان صعوبة الرحيل ومرض الحنين للوطن. أقصى- ما سافرت إليه هي عمان ولا أبعد من ذلك, ولكني وعدته بأني لن أتخلي عن خالتي مشاتي في غيابه.

بكت خالتي بكاء مريرا عندما جاء أحد رفاقه الذي كان معه في الدورة الخاصة, واخبرنا أن شحدة لم يعد. لا أحد يعلم مكانه, اختفى قبل موعد العودة بيوم ولا شخص سمع منه أو عنه شيئا. سرت شائعات كثيرة, مختلفة ومختلفة. بكت خالتي كثيرا, بكت أمي وبكيت لبكائهما.

بعد مرور أكثر من عام وصلني خطاب منه يفيد بأنه بخير وما زال على قيد الحياة. أخبرت خالتي بهذا الخبر السعيد لم تتمالك نفسها من البكاء والعيول , كعادتها عندما تراني وشحدة ليس بصحبتى.

سلمت عليه بحرارة, تعانقنا طويلا, جلست بجانبه على عتبة الباب. سألته عن أخباره فقال:

- أنا بخير, جئت لبيع كل ما املك هنا في القرية وأعود إلى امريكا. سألته عن أحوال خالتي مشاتي. قال لي إنها في أحسن حال. قبل ثلاثة أشهر حصلت على الجنسية الامريكية. حاولت أن أقنعها لتأتي معي للزيارة هنا, ولكنها رفضت, وبقيت مع زوجتي وأولادي هناك.

- هذا غريب يا شحدة أن لا ترغب خالتي في المجيء إلى هنا؟

- من يوم أخذت الجنسية أحوالها تغيرت ومؤشر نفسياتها بارتفاع كل يوم.

- وكيف صارت هيكل؟

- في اليوم الموعود لمنحها الجنسية ذهبنا معا إلى القاضي, وبعد مراجعته لكافة الأوراق ووجدتها مكتملة وسليمة, نظر إليها وجها لوجه وخاطبها قائلاً:

- يا سيدة مشاتي, إن امريكا دولة عظيمة وقوية, وزادت عظمتها وقوتها اليوم بانضمامك اليها وأصبحت فردا من هذه الأمة.

لم أتمالك نفسي من الضحك الهستيري الذي أصابني. وين كانت خالتي مشاتي عن هذه الأمة الأمريكية؟! كانت معنا وبيننا, لم تكثر لها الدولة يوما, وكأنها غير موجودة. تقدمت في إحدى المرات إلى طلب معونة, وقالوا بأنها لا تستحق ذلك. عندها ولد في امريكا.

لم أكن اعلم بان لخالتي هذه القوة والعظمة , وأنها سبب في زيادة قوة امريكا وارتفاع عظمتها. خالتي مشاتي التي كانت ترتدي الثوب الأسود, ما غيره, عندما تسير يتخيل إليك بأنها تكنس الدرب التي تسير عليها.

ضحكت بلا توقف, نظرت إلى شحذة وبدأ بالضحك مثلي. هدا الضحك الهستيري شيئاً, استدرت نحوه:

- وهل خالتي مشاتي تعرف الانجليزية؟
- بتلطش على الخفيف.
- وأنت , كيف لغتك الانجليزية؟
- بلبل. وبدأ بمواصلة الضحك الهستيري. وقال لي هل تذكر معلم اللغة الانجليزية؟ ما كنا نفرق بين الألف والعصا. دائما نأكل بهادل. في أحد دروس اللغة الإنجليزية كتب المعلم على اللوح العبارة التالية:

"The boy eats the apple"

كنا نلفظ كلمة boy جيداً ولكن المشكلة الكبرى في لفظ كلمة apple. دائماً هنالك مشكلة مع حرف " p", حاولنا أن نجد مقابلاً له حرف من حروف اللغة العربية فلم نفلح.

كان دائماً معلم اللغة الانكليزية يقول:

- ولك يا شحذة خلى حرف " p" يخرج بخفة من بين "شلاطيفك".
- عاودنا الضحك مجدداً مع استرجاع الذاكرة ومشاكلنا مع الأحرف التي كانت تسبب لنا الغلبة والارتباك, مثل حرف " v" وحرف " q".

- هل تذكر يا ممدوح عندما قرأنا أول قصة مصورة؟
- وهل استطيع نسيانها. كانت قصة رائعة عن مصباح علاء الدين. ولكن لماذا هذا السؤال؟
- هل تذكر عندما سألتني ماذا أتمنى لو أن مصباح علاء الدين معي وفركته ويخرج المارد منه ويركع أمامي قائلاً:
- " شببك لبيك خادمك بين يديك". لديك ثلاثة أماني أستطيع أن أحققها لك.
- أذكر ذلك جيداً, وسألتك ما هي أمانيك؟ ولم تخبرني عنها يا شحذة.

- نعم لم أخبرك, سأخبرك الآن. كانت أمنيّتي الأولى أن يدهس القطار زقلا ويصبح مقعدا. والأمنيّة الثانیة أن يطلب مني أن أشتري له كرسيًا متحركًا. والثالثة أن يطلب مني بكل رجاء وذل أن أدفع كرسيه عند عتبة دكانه ليدخلها.

- أول مرة أعرف بهذه الأمانی. ولكن ما علاقة زقلا وهذه الأمانی؟

- لقد جاء أمني يطلب يدها. لم أصدق أذني, ربما ردة فعل. كما كان يقول معلم الفيزياء " لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه". وأنت يا ممدوح لو أنك تملك المصباح, ما هي أمانيك؟ لديك ثلاثة أمانی فقط لتختارها. - سؤال محير فعلاً. دائماً أعلم بأن أمام كل شخص ثلاثة دروب. درب السلامة ودرب الندامة ودرب تودي وما تجيب. والله بعد الذي جرى لي سأختار درب تودي وما تجيب.

- يعني "One Way".

- نعم ... ذهاب بلا عودة.

- هل تذكر معلم الرياضيات عندما كان يقول بأن السالب بعد السالب موجب. ربما تتحسن أحوالك وتفرج عليك خير من أن تذهب للمجهول!

- وهل تذكر عندما كان يقول إن للمجهول قيمة, وأن بعض الكسور لا تجبر!

- دائماً تغلبنی يا ممدوح. تذكرة سفرك على حسابي الشخصي

. (One Way Only)

وأنت يا شحدة ما هي أمانيك بعد أن كبرت؟

- سأعيد المارد إلى قممته في المصباح ويكون جزءاً من ورثة أبنائي. ربما يحقق لهم أمانیهم.

*

شعرت بالعطش, دخلت إلى داخل المنزل لأشرب الماء.

. لمحت على التلفاز صورة المهندس تميم. دنوت من التلفاز أكثر حتى أتأكد من ذلك. كان الخبر بأن المهندس تميم ,وبصحبتة زوجته, ربح جائزة كبرى من تركيا. كان في زيارة لتركيا وكانت الجائزة من نصيبه كونه كان الشخص الذي يحمل رقم المليار بعبوره جسر البسفور. دنوت من التلفاز, ولكن هذه ليست زوجته, إني أذكر سحنتها جيدا . إنها سكرتيرته التي كانت ما تطيق تشوف وجهي...الخ.

لنعد إلى الواقع . أخبرني عن أوضاعك الآن يا ابن خالتي شحدة.
. وضعي هناك فوق الريح. اعمل في مجال تجارة السيارات المستعملة, إنها تجارة رائجة جدا. سوق أمريكا اللاتينية يعتبر من أفضل أسواقنا.
تذكرت زميلنا مبارك, وقلت له هل تذكر مبارك؟ الذي دائما "يخربط" في سورة النصر.

- ما زلت اذكره, وهل يوجد أحد لا يذكره.
- انه يعمل في مجال تجارة السيارات المستعملة, وضعه فوق الريح. لديه محلات كثيرة في مختلف مناطق البلاد. يبدو أنها تجارة مربحة. ولكن اخبرني يا شحدة كيف صرت تاجر سيارات مستعملة.
- عندما ذهبت في دورة تدريبية إلى أمريكا, كنا نلعب كرة الطائرة في أوقات فراغنا الكثيرة. احد الزملاء سقط على الأرض وانكسرت ذراعه. ذهبت معه مرافقا إلى المستشفى. هناك في غرفة الطوارئ, رجل واقف مهموما. اقترب نحوي وقال:

- إن إبني في غرفة الطوارئ وبحاجة إلى دم, إذا ترغب أن تبيعني عدة وحدات من دمك.

شعرت بالدهشة من هذا الطلب. وقلت له بأن دمي ليس للبيع. لم يتكلم الرجل كلمة وبكل أدب قال أشكرك. شعرت بالحزن والأسى نحوه, فقلت له إني أستطيع أن أتبرع بدمي لابنك. شيء لم يتوقعه أبدا. لقد حفظ هذا الجميل الذي أنقذ حياة ابنه. أصبحنا أصدقاء وأقنعني بالبقاء في أمريكا وعدم العودة مع زملائي. بدأت العمل معه في معارض سياراته الكثيرة, وساعدني في امتلاك أول معرض للسيارات المستعملة.

والآن عدت إلى القرية حتى أبيع كل ما املك. لا يوجد أي شيء يشدني هنا. أخبرني عن أحوالك أنت يا ممدوح.

سردت له كل ما جرى معي . انفجر ضاحكاً

وقال :

- " يعني مثل تيس عاهرة".

- بالضبط, يمكن أن تقول هكذا, شيء من هذا القبيل.

- يا ليتك تأتي معي ونعمل هناك معاً, أمريكا أرض الأحلام.

- أنا لا أرغب أن أهاجر إلى أمريكا. أنا قررت أن اعمل بائع "ايس كريم".

ضحك شحدة من كل قلبه على هذه الفكرة, وقال:

- أنت تريد أن تكون بائع " ايس كريم"؟

- نعم , أنا ولا غيره. هل تذكر معلم الجغرافيا عندما قال بأن هناك في الكرة

الأرضية قطبان, شمالي وجنوبي؟ وأن هناك فصلين فقط في هذين القطبين

فصل شتاء وفصل صيف.

- نعم أذكر هذا الكلام ولا أنساه, هما قطبان مغناطيسيان, شمالي وجنوبي.

ولكن ما الذي حشر هذين القطبين في مشاريعك المستقبلية , وان تصبح بائع

"بوظة" أو " ايس كريم", كما شئت أن تسميها, أصبحت بلبل في. وهل ستبعتها في القرية , أم على أبواب محطة تنقية السمرا؟!!

- لا هذا ولا ذاك يا شحدة. أنا راحل إلى القطبين, سوف أبيع " ايس كريم " لمدة ستة أشهر الصيف في القطب الشمالي ثم انتقل إلى صيف القطب الجنوبي لمدة ستة أشهر أخرى. وهكذا اقضي طول عامي منشغلاً .
ضحك شحدة ساخرا مرة أخرى وقال:

- لماذا لا تستقر في قطب واحد وتبيع "سحلب " في فصل الشتاء؟؟
أجبتة مازحاً , بأن لا توجد أبقار عندهم لعمل "سحلب". سوف اشترى عربة تجرها الكلاب , سوف أكون الرائد الأول يبيع " ايس كريم" في القطبين وعلى عربة تجرها الكلاب.

قال شحدة: بالتأكيد ستكون الرائد الأول في هذا المجال, فأنت أردني, مثل كل أردني , يعرف كل شيء باستثناء ذاته.

تمت